التربية الأخلاقية بالقدوة في تفسير القرطبي (أحكام القرآن)

Moral Education through Role Modelling in Al-Qurtubi's Tafsir (Ahkam al-Quran)

1عبيدة أبو غزالة، جامعة النجاح الوطنية/فلسطين

2 الدكتور: عودة عبد الله، جامعة النجاح الوطنية/فلسطين

تاريخ الاستلام: 24/ 03/ 2024 تاريخ القبول: 24/ 05/ 2024 تاريخ النشر: 31/ 05 /2026

ملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع التربية الأخلاقية بالقدوة في تفسير الإمام القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، حيث تُعد التربية بالقدوة من أنجع الوسائل التربوية في الإسلام لغرس القيم والمبادئ في النفوس. جاءت الدراسة للإجابة عن السؤال الرئيس: كيف عالج الإمام القرطبي مفهوم التربية الأخلاقية بالقدوة في تفسيره، وما ملامح منهجه في توظيف القدوة لترسيخ القيم الأخلاقية؟

اعتمدت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي، باستقراء المواطن التي أورد فيها القرطبي دور القدوة في التربية وتحليلها. وقد تميز القرطبي بعنايته البالغة بالجانب الأخلاقي، إذ لم يقتصر في تفسيره على بيان المعاني اللغوية والأحكام الفقهية، بل تجاوز ذلك إلى استنباط الأبعاد التربوية والإنسانية من الآيات القرآنية.

أبرزت الدراسة أن القرطبي جعل من الأنبياء والصحابة والسلف الصالح نماذج عملية يُحتذى بها في السلوك والأخلاق، موظفًا السيرة النبوية وسلوك الصحابة كمصادر تربوية لترسيخ القيم. كما بينت أن القرطبي يرى القدوة تمثيلًا عمليًا للنص القرآني، فالنص لا يكتفي بأن يبقى مبدأً نظريًا، بل يتحول إلى سلوك عملي عبر من جسدوه من الأنبياء والصحابة.

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، أهمها: أن القدوة تمثل محورًا مركزيًا في المنهج التربوي عند القرطبي، وأنه لم يكتفِ بعرض القيم نظريًا، بل حرص على تجسيدها من خلال نماذج عملية. كما تميز القرطبي بقدرته على استنباط المعاني التربوية المرتبطة بالقدوة من الآيات القرآنية، مؤكدًا على ضرورة التلازم بين القول والفعل لتحقيق الأثر المرجو من الاقتداء.

الكلمات المفتاحية: القرطبي، أحكام القرآن، القدوة، التربية الأخلاقية.

Abstract:

This study examines the topic of moral education through role modelling in Imam al-Qurtubi's interpretation "Al-Jami' li-Ahkam al-Quran" (The Compendium of Legal Rulings of the Quran). Education through role modelling is considered one of the most effective educational methods in Islam for instilling values and principles in individuals. The study seeks to answer the main question: How did Imam al-Qurtubi address the concept of moral education through role modelling in his tafsir, and what are the features of his methodology in employing role models to establish moral values?

The study adopted an inductive-analytical approach, examining the instances where al-Qurtubi discussed the role of exemplary figures in education and analysing them. Al-Qurtubi distinguished himself through his profound attention to the moral dimension; his interpretation was not limited to explaining linguistic meanings and juristic rulings but extended to deriving educational and humanitarian dimensions from Quranic verses.

The study highlighted that al-Qurtubi made the Prophets, Companions, and righteous predecessor's practical models to be emulated in behaviour and ethics, utilizing the Prophetic biography and the conduct of the Companions as educational sources for establishing values. It also showed that al-Qurtubi viewed role modelling as a practical representation of the Quranic text; the text does not remain merely a theoretical principle but transforms into practical behaviour through those who embodied it, including the Prophets and Companions.
Keywords : Al-Qurtubi, Ahkam al-Quran (Quranic Rulings), Role Modeling, Moral Education.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، اما بعد:

تُعدّ التربية الأخلاقية بالقدوة من أنجع الوسائل التربوية التي اعتمدها الإسلام في بناء الإنسان وصياغة شخصيته، إذ لم يكتفِ بتقرير القيم نظرياً، بل جسّدها في نماذج بشرية راقية، يتقدّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أصحابه الكرام، فكانت القدوة العملية أساساً في ترسيخ الأخلاق وتثبيتها في السلوك الفردي والجماعي. وقد حظي هذا المنهج بمكانة بارزة في التراث التفسيري، حيث لم يقتصر المفسرون على بيان الأحكام والمعاني اللغوية، بل سعوا إلى إبراز البعد التربوي والأخلاقي للنص القرآني.

ويأتي الإمام القرطبي في طليعة المفسرين الذين أولوا عناية خاصة بجانب التربية الأخلاقية، فجعل من تفسيره الجامع لأحكام القرآن منبرًا لغرس القيم وترسيخ الفضائل، مستندًا في ذلك إلى عرض النماذج القدوة من الأنبياء والصحابة والسلف الصالح، وربط الأخلاق الإسلامية بتطبيقاتها العملية في واقع الحياة. ومن هنا تبرز أهمية دراسة منهجه في التربية الأخلاقية بالقدوة، للكشف عن أبعاده التربوية وأثره في بناء الإنسان المسلم، ولا سيما في زمن تتعاظم فيه الحاجة إلى النماذج الصادقة والأساليب التربوية المؤثرة.

مشكلة البحث

يأتي البحث للإجابة على السؤال الرئيس الآتي: كيف عالج الإمام القرطبي مفهوم التربية الأخلاقية بالقدوة في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، وما ملامح منهجه في توظيف القدوة لترسيخ القيم الأخلاقية؟

ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:

1. ما الأسس الشرعية والتربوية التي اعتمدها القرطبي في إبراز دور القدوة؟
2. ما النماذج التي ركّز عليها في تفسيره (الأنبياء، الصحابة، السلف)؟
3. ما مدى الحاجة إلى استلهام هذا المنهج في واقع التربية المعاصرة؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة في الأمور الآتية:

1. تسليّط الضوء على جانبٍ مهم في تفسير القرطبي، يتمثل في البعد التربوي والأخلاقي.
2. إبراز دور القدوة كوسيلة تربوية مركزية في المنهج الإسلامي من خلال تفسير القرطبي.

3. الإسهام في الربط بين الدراسات التفسيرية والدراسات التربوية.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى أمور يمكن إجمالها في الآتي:

1. بيان مفهوم التربية الأخلاقية بالقدوة في الفكر الإسلامي من خلال تفسير القرطبي.
2. الكشف عن ملامح منهج الإمام القرطبي في توظيف القدوة لترسيخ القيم الأخلاقية.
3. إبراز النماذج القدوة التي اعتمدها القرطبي في تفسيره، ودورها في التوجيه التربوي.

الدراسات السابقة:

حظي تفسير الإمام القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) بعناية كبيرة من العلماء والباحثين عبر العصور، ولا سيما في العصر الحديث، حيث اتجهت الدراسات الجامعية والبحوث الأكاديمية إلى استكشاف ملامح منهجه ومواطن تميزه، لما يمثله من ثروة علمية تجمع بين التفسير والفقه واللغة والأخلاق. فقد عُد تفسير القرطبي من أهم كتب التفسير الفقهي، ومن أكثرها شمولاً واعتدالاً، مما جعله محوراً لعدد كبير من الرسائل الجامعية والدراسات التحليلية التي تناولت منهجه ومضامينه من زوايا متعددة.

وقد تنوعت هذه الدراسات بين ما ركز على منهجه في التفسير وأصوله العلمية، وبين ما تناول قضاياه العقدية والفقهية واللغوية، كما أُعدت دراسات مقارنة بين تفسيره وتفاسير أخرى مثل (الطبري) و(الرازي) و(ابن كثير)، مما يدل على مكانته الراسخة بين المفسرين، وقدرته على الجمع بين عمق التراث وثراء المعالجة الفكرية.

ولم أجد من خلال بحثي دراسة سابقة عنيت بدراسة التربية بالقدوة في تفسير القرطبي، على الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت تفسير القرطبي، ومن هذه الدراسات:

1- القرطبي مفسراً، علي بن سليمان بن عبيد، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، (1981م).

وقد جاءت الرسالة في أربعة أبواب، تناول في الباب الأول حياة القرطبي وتراثه، وفي الثاني دراسة عن كتاب القرطبي، وفي الثالث منهج القرطبي في تفسيره، أما في الرابع فتناول المنزلة العلمية لتفسير القرطبي.

2- منهج الإمام القرطبي في أصول الدين، احمد بن عثمان المزيد، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، (1992م).

وقد تكونت الدراسة من تمهيد وثلاثة أبواب، عرض الباحث في الباب الأول منهج القرطبي في عرض التوحيد مثل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، بينما عرض في الباب الثاني منهجه في سائر أصول الدين مثل الإيمان بالملائكة والإيمان باليوم الآخر، وعرض في الباب الثالث موقفه من الفرق المبتدعة في العقيدة.

3- منهج الاستنباط عند القرطبي من خلال كتابه الجامع لأحكام القرآن، عمار إسماعيل صالح، رسالة دكتوراة، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، (2017م).

وقد تكونت الرسالة من ستة فصول، تناول البحث في الفصل الأول ترجمة الإمام القرطبي، وفي الثاني مفهوم الاستنباط في القرآن الكريم، وفي الثالث أقسام الاستنباط باعتبار موضوعه وصحته وبطلانه، وفي الرابع شروط الاستنباط من القرآن الكريم عند القرطبي، وفي الخامس طرق الاستنباط من القرآن الكريم عند القرطبي، وفي السادس أسباب الانحراف والخطأ في الاستنباط عند القرطبي.

وتتميز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة بالآتي:

1- تناولت الدراسة تفسير القرطبي من ناحية عنايته بالقدوة، ومنهجه في إيرادها في تفسيره.

2- بينت الدراسة دور القدوة في تفسير القرطبي ودورها في التربية الأخلاقية.

منهج البحث:

يقوم البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك باستقراء المواطن التي أورد فيها القرطبي دور القدوة في التربية، ثم تحليلها لبيان كيفية تناول وعرض القرطبي لمفهوم القدوة في تفسيره.

خطة البحث:

المبحث الأول: مفهوم التربية الأخلاقية وعلاقتها بالقدوة عند القرطبي

المطلب الأول: مفهوم التربية الأخلاقية في التصور القرآني عند القرطبي

المطلب الثاني: مفهوم القدوة وعلاقتها بالتربية الأخلاقية عند القرطبي

المطلب الثالث: التعريف بالقرطبي وتفسيره

المبحث الثاني: الأسس القرآنية والمنهجية للقدوة في تفسير القرطبي

المطلب الأول: أهمية القدوة في التربية الأخلاقية

المطلب الثاني: معيار القدوة الصالحة في ضوء تفسير القرطبي

المطلب الثالث: النماذج النبوية للقدوة في تفسير القرطبي

المطلب الرابع: التجليات العملية للقدوة: القول والعمل

المطلب الخامس: آليات استنباط القرطبي لمواضع الاقتداء من النص القرآني

المبحث الثالث: آثار القدوة في السلوك الفردي والاجتماعي في تفسير القرطبي

المطلب الأول: الاقتداء في التأدب مع الله عز وجل

المطلب الثاني: أثر القدوة في تشكيل شخصية المسلم

المطلب الثالث: أثر القدوة في سلوك المسلم تجاه المخالفين

1عبيدة أبو غزالة، جامعة النجاح الوطنية/فلسطين

2 الدكتور: عودة عبد الله، جامعة النجاح الوطنية/فلسطين

المبحث الأول

مفهوم التربية الأخلاقية وعلاقتها بالقدوة عند القرطبي

يعد القرطبي من أبرز مفسري القرآن في التاريخ الإسلامي، وقد تميز بعلمه الواسع في الفقه والحديث واللغة، مما أكسب تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" مكانة رفيعة بين كتب التفسير. وتبرز الأخلاق الإسلامية في تفسير القرطبي باعتبارها محوراً أساسياً، إذ كان يرى أنّ القرآن لا يهدف فقط إلى بيان الأحكام، بل يهدف أيضاً إلى تزكية الإنسان وإقامة مجتمع فاضل يقوم على قيم العدل والرحمة والصدق والأمانة. ولذلك نجده يستشهد بالآيات والأحاديث وأقوال السلف لتأكيد مركزية الأخلاق في بناء الأمة، وينبّه إلى أن صلاح المجتمع مرتبط بترسيخ هذه القيم في السلوك الفردي والجماعي.

المطلب الأول: مفهوم التربية الأخلاقية في التصور القرآني عند القرطبي

نبَّه الإمامُ القرطبي في تفسيره إلى عظيم شأن الأخلاق ومكانتها في الإسلام، وقد تجلّت هذه العناية بوضوح في تفسير القرطبي، إذ أولى مكارم الأخلاق اهتماماً بالغا، فلم يقتصر في تفسير الآيات على بيان معانيها اللغوية أو أحكامها الفقهية، بل تجاوز ذلك إلى استنباط أبعادها التربوية والإنسانية. وهذا يكشف عن رؤيته العميقة للأخلاق بوصفها ركناً أصيلاً في الشريعة، فهي تمثل جوهر الهداية القرآنية وروحها الحاكمة.

ومن أبرز الشواهد على ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ البقرة [83]، حيث قرر أن هذه التوجيهات كلها حثٌّ على مكارم الأخلاق، وأن الواجب على الإنسان أن يكون خطابه للناس لينا، ووجهه منبسطا طلقا، في تعامله مع البرّ والفاجر، والسنيّ والمبتدع، من غير مداهنة ولا مجاراة في الباطل. واستدل على ذلك بالأمر الإلهي لموسى وهارون عليهما السلام بأن يقولا لفرعون قولا لينا، مؤكدا أن من يخاطب اليوم ليس خيرا من موسى وهارون، ولا من يُخاطَب شرًّا من فرعون، ومع ذلك أُمِرا بالرفق في الخطاب[1].

ويُبرز هذا النص بجلاء كيف جعل القرطبي التربية الأخلاقية عنصرا أصيلا في تفسيره، إذ وسّع دائرة القول الحسن لتشمل جميع الناس، دون أن يعني ذلك التنازل عن الموقف الشرعي أو الوقوع في المداهنة. فهو يرسّخ بذلك قاعدة راسخة في التعامل الإنساني، تقوم على الرفق واللين وحسن الخطاب، مستلهما النموذج القرآني في دعوة موسى وهارون عليهما السلام.

كما يتجلّى اهتمام القرطبي بالبعد الأخلاقي من خلال منهجه في إفراد المسائل عند تفسير الآيات ذات التوجيه الخلقي، وهو ما يُعد دليلاً واضحا على وعيه بأهمية هذا الجانب. فلم يكتفِ بالشرح اللغوي أو باستنباط الأحكام الفقهية، بل خصّص مساحة مستقلة لبيان الدلالات التربوية والسلوكية التي تحملها الآيات، انطلاقاً من إدراكه أن غاية القرآن لا تقتصر على التشريع، وإنما تتجه إلى تربية الإنسان وتهذيب سلوكه.

[1]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 16/2.

ويتضح هذا المنهج بجلاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف [199]، حيث أفرد المسألة الأولى لبيان ما تضمنته الآية من توجيهات أخلاقية جامعة. ففسّر قوله: خُذِ الْعَفْوَ بأنه يشمل العفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وصلة القاطعين، وكل ما يندرج تحت خلق التسامح. وبيّن أن قوله: وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ يتناول الدعوة إلى كل ما استقر في الشرع من خير، كصلة الأرحام، والتقوى، وغضّ البصر. أما قوله: وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، فجعله توجيهاً إلى التعالي عن السفه، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة الجهلة.[1]

ومن خلال هذا التفصيل الدقيق، يُظهر القرطبي أن كل لفظ قرآني ينطوي على منظومة متكاملة من القيم والأخلاق، فيبسط القول فيها، ويستشهد بالأحاديث النبوية وآثار السلف، ليجعل من تفسيره مدرسةً عمليةً في التربية الأخلاقية. ويكشف هذا المنهج عن حرصه البالغ على ترسيخ البعد الأخلاقي بوصفه ركيزة أساسية في فهم القرآن الكريم وتنزيله على واقع حياة المسلمين.

يتضح من منهج القرطبي أن نظرته إلى الأخلاق لا تقتصر على كونها قيماً فردية محضة، بل تتجاوز ذلك لتشمل آثارها الاجتماعية والإنسانية، إذ أبرز دورها في صون كرامة الإنسان، ورعاية الفقراء والضعفاء، وترسيخ معاني التكافل والتراحم داخل المجتمع. ويعكس هذا التناول الشامل رؤيته للأخلاق باعتبارها ركيزة أساسية للاستقرار الاجتماعي وبناء علاقات إنسانية قائمة على الرحمة، لا مجرد توجيهات سلوكية فردية معزولة عن واقع الناس. كما تتجلى أهمية الأخلاق بوضوح في ميدان الدعوة إلى الله تعالى؛ إذ إن اختزال دخول الناس في الإسلام في مجرد الاقتناع العقلي وحده تصور قاصر، فكم من أناس اعتنقوا الإسلام أو اطمأنوا إلى تعاليمه لما لمسوه من صدق الأخلاق، وحسن المعاملة، والتوافق بين القول والعمل لدى الدعاة وأتباع هذا الدين. وقد تنبّه القرطبي إلى هذا البعد الدعوي العميق، فجعل الأخلاق معيارًا في اختيار الصحبة، ولا سيما عند حديثه عن صفات حامل القرآن، إذ يؤكد ضرورة مصاحبة من يعين على الخير، ويدل على الصدق، ويحث على مكارم الأخلاق، ويكون سببًا في تزكية الإنسان وتجميله سلوكًا، لا في تشويهه أو تنقيصه. يقول: "ويصاحب من يعاونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق ويزينه ولا يشينه"[2].

المطلب الثاني: مفهوم القدوة وعلاقتها بالتربية الأخلاقية عند القرطبي

يحتلُّ مفهومُ القدوة موقعا مركزيا في الفكر الإسلامي كوسيلة تربوية عمليةٍ وفعالة لترسيخِ القيم والسلوكيات. وقد برز هذا المنهج بجلاء في تفسير القرطبي، إذ لم يكتفِ بالشرح اللغوي والفقهي للآيات فحسب، بل وظّف السيرةَ النبويةَ وسلوك الصحابة والأنبياء كمصادر عملية للتربية الأخلاقية، وجعلَ الاقتداءَ رافداً أساسيا في بناء الشخصية المسلمة السوية.

يفهمُ القرطبي القدوةَ على أنّها تمثيل عملي للنص؛ أي أنَّ النص القرآني لا يكتفي بأن يبقى مبدأً نظريا، بل يتحول إلى سلوك عملي عبر من جسدوه من الأنبياءِ والصحابة والسلف. فالقدوة عنده معيار يقاس به الفهم التشريعي والتطبيق العملي، فما يريده اللهُ من عباده يتجلى في قول النبي وسلوكه، وفي سلوك من جاءوا بعده ممن نقلوا الدين بالأثر العملي. ويكررُ القرطبيُ في أكثرِ من موضع من تفسيره الإشارةَ إلى أنَّ الاقتداءَ بالنبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام هو طريقٌ لتصحيحِ الفهمِ وتربية السلوك.

ومن الأمثلة على ذلك حديثه عن التعامل مع الفئة الباغية التي تخرج على الحاكم العدل، فيقول: "والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مدبرا ولا ذففوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفساً ولا مالا، وهم القدوة"[3].

---

[1]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 344/7.

[2]) القرطبي، الجامع لأحكام القِرآن، 21/1.

[3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 320/16.

وكذلك عند تقريره لوجوب قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة، يشير القرطبي إلى أهمية القدوة في تقرير الحكم الشرعي، فيقول: "فهؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة"[1]

فالقرطبي يستخلص من قصص الأنبياء وسير الصحابة دروسا أخلاقيةً عمليةً، فيحوّل القصة التاريخية إلى توجيه تعليمي يُحتذى به كقصص يوسف وإبراهيم وموسى عليهم السلام، ويُظهر كيف تصنع الأخلاق سلوك المؤمن وتعامله في المواقف اليومية. فهو يستعمل الأحاديث والآثار والقصص لتحريك الوازعِ الداخلي، مبينا ثمار التخلق بالقدوة في الدنيا والآخرة، مما يحول القول إلى دافع عملي للتغيير.

لذلك لم يكن مفهوم القدوة عند القرطبي مفهوما تفسيريا يسهم في توضيح النص فقط، بل هو منهج تربوي متكامل يربط بين القول والعمل، ويجعل من السلف والصحابة والأنبياء منارات تضيء الطريق للمربي والمتعلم معا. وقد أبانت دراسة منهجه أنَّ الاقتداء لدى القرطبي يعمل كجسر بين الفقه وروح الشريعة الأخلاقية، وينقل التعاليم من حدود الوجوب إلى آفاق الكمال الإنساني.

المطلب الثالث: التعريف بالقرطبي وتفسيره

أولا: التعريف بالقرطبي

هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح[2]، الإمام أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي[3]، ذكر ابن شداد في كتابه (تاريخ الملك الظاهر) أن مولده في سنة اثنتين وستمائة[4].

ينتسب إلى مدينة قرطبة بالأندلس، وهي من أعظم مدن الإسلام في الغرب الإسلامي، وقد كانت عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس. وقرطبة لم تكن مجرد مركز سياسي، بل كانت عاصمة للعلم والثقافة والفنون والعلوم الشرعية والدنيوية، فهي قبلة العلماء ومجمع الفقهاء والمفسرين والأدباء.[5]

وقد مكنه هذا المناخ من التدرج في طلب العلم الشرعي واللغة والأدب والمنطق، ثم تخصص لاحقا في علم التفسير والحديث والفقه المالكي، حتى أصبح من أبرز علماء الأندلس، ثم انتقل إلى المشرق – وخاصة مصر – حيث أكمل مسيرته العلمية.[6]

بدأ القرطبي حياته العلمية في قرطبة، ثم انتقل إلى مصر بفعل الغزو الصليبي، حيث استقر فترة من الزمن في ثغر الإسكندرية، وأخذ عن العلماء فيها، ومن ذلك قوله: "سمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثغر الإسكندرية يقول..."[7]، وكان من أبرز

[1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 119/1

[2]) ابن فرحون، الديباج المذهب، 308/2. محمد الدمشقي، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، 65/7. وعند السيوطي في طبقات المفسرين: "محمد بن احمد بن ابي فرح الانصاري الخزرجي المالكي"، طبقات المفسرين العشرين، 92.

[3]) الذهبي، تاريخ الإسلام، 229/15. ابن فرحون، الديباج المذهب، 308/2. عمر كحالة، معجم المؤلفين، 239/8.

[4]) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، 68.

[5]) انظر: محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، 224-225.

[6]) انظر: مفتاح السنوسي، القرطبي حياته واثاره العلمية، 52،119.

[7]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 422/10.

من تتلمذ عليهم في الإسكندرية المحدث أبي محمد عبد الوهاب بن رواج[1]. ثم انتقل القرطبي بعد أن استقر في الإسكندرية فترة من الزمن إلى منية بني الخصيب، حيث استقر فيها، وكانت وفاته بها سنة إحدى وسبعين وستمائة[2].

ينتمي الإمام القرطبي إلى المذهب المالكي، وقد تجلى هذا الانتماء في تفسيره من خلال ذكره لأقوال فقهاء المذهب، واعتماده على أصوله. لكنه لم يكن متعصبا، بل كان يتحرى الدليل، فإذا ترجح عنده خلاف ما عليه المالكية، تبعه. وقد أشار الذهبي إلى هذه السمة بقوله: "وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أيا كان قائله"[3].

ولهذا عده المالكية من علمائهم البارزين، وذكروه في كتب التراجم، كما فعل ابن فرحون في كتابه "الديباج المذهب"، ومحمد بن محمد مخلوف في "شجرة النور الزكية".

عرف القرطبي بزهده وتقشفه، واشتهر بالعبادة والصلاح والعلم، مع تمكن من العلوم التي حصلها وصنف فيها، ورفعة في الأخلاق والسلوك، وهو ما شهد له به علماء عصره، وهذا ظاهر في ترجمة من ترجم له من العلماء. فقد أثنى عليه الذهبي قائلا: "الإمام العلامة المفسر...عمل التفسير الكبير وتعب عليه، وحشاه بكل فريدة... وكان من أوعية العلم رحمه الله"[4].

وقال الصفدي: "إمام متبحر في العلم، له تصانيف تدل على كثرة اطلاعه، ووفور فضله... وأشياء تدل على إمامته وكثرة اطلاعه"[5].

يقول عنه ابن فرحون: "الشيخ الإمام أبو عبد الله الأنصاري الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الاخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف"[6].

ثانيا: التعريف بتفسير القرطبي

يعد تفسير الإمام القرطبي من أعظم الموسوعات التفسيرية التي عنيت بالقرآن الكريم، وهو من أبرز كتب التفسير التي ركزت على الأحكام الشرعية واستنباطها من آيات الكتاب العزيز. امتاز هذا التفسير بشموليته وتنوع موضوعاته؛ فقد تناول فيه المؤلف أسباب النزول، وذكر أوجه القراءات القرآنية، وشرح معاني الألفاظ الغريبة، وبين وجوه الإعراب، كما اهتم بتخريج الأحاديث النبوية المتعلقة بالآيات.

جمع الإمام القرطبي فيه بين أقوال السلف والخلف، ونقل آراء الفقهاء من مختلف المذاهب، واستشهد بأشعار العرب لإيضاح المعاني وتقريب الفهم، وقد أشار في مقدمة تفسيره إلى أن الدافع إلى تأليفه كان خدمة كتاب الله ببيان أحكامه، وشرح معانيه، وربط نصوصه بأصول الفقه واللغة. يقول: "فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ منه منتي، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزًا يتضمن

---

[1]) الشيخ، الإمام، المحدث، مسند الإسكندرية، رشيد الدين، أبو محمد عبد الوهاب بن رواج - واسمه: ظافر - بن علي بن فتوح بن حسين الأزدي، القرشي حليفهم، الإسكندراني، المالكي، الجوشني... وكان فقيها فطنا، دينا، متواضعا، صحيح السماع، توفي سنة 648هـ(الذهبي، سير أعلام النبلاء، 23/237-238).

[2]) ابن فرحون، الديباج المذهب، 309/2.

[3]) الذهبي، التفسير والمفسرون، 338/2.

[4]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 97/17.

[5]) الصفدي، الوافي بالوفيات، 87/2.

[6]) ابن فرحون، الديباج المذهب، 308/2.

نكتًا من التفسير، واللغات، والإعراب، والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيها، ومبيناً ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف"[1].

كما ينقل عن مفسرين سابقين مثل ابن جرير وابن عطية، مع تعقيبات على آرائهم. وتفسيره يبتعد عن الكثير من قصص المفسرين والأخبار التاريخية والإسرائيليات، مع تناول بعضها أحياناً، ومثال ذلك ما يرويه عن الزهري في قوله تعالى: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فاطر [1]، "أن جبريل عليه السلام قال له: يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح، منها جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه في الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع[2]"[3].

يتسم تفسير الإمام القرطبي بشموليته وغناه العلمي، إذ لم يقتصر فيه على آيات الأحكام فقط، بل تناول جميع آيات القرآن الكريم، مما جعله مرجعاً مهماً للباحثين وطلاب العلم. ويبرز في تفسيره اهتمام واضح بمناقشة آراء الفلاسفة والمعتزلة وغلاة المتصوفة، حيث يرد عليها ويعرض مذاهب الأئمة ويوازن بينها بأسلوب علمي دقيق.

ويعد تفسيره من أبرز ما ألف في تفسير الأحكام الشرعية، لما يتميز به من تركيز على استنباط الأدلة من النصوص، وبيان وجوه القراءات، وتوضيح مسائل الناسخ والمنسوخ، مع تجنبه الإطالة في القصص والتواريخ، وهو ما أكسبه مكانة رفيعة بين كتب التفسير، حتى وُصف بأنه من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، قال عنه ابن فرحون: "وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر الإعراب والقراءات والناسخ والمنسوخ"[4].

ومما أضاف إليه قيمة علمية التزام الإمام القرطبي بأمانة النقل، ونسبة الأقوال إلى قائليها، يقول: "وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله"[5].

ولم يكن اهتمام القرطبي مقتصراً على بيان المعاني اللغوية والأحكام الفقهية، بل كان له عناية بالجانب الأخلاقي، باعتباره ركنا أصيلا في الدين، ومقصدا رئيسا من مقاصد الوحي. ومن يطالع تفسيره يجد أن القرطبي يربط بين نصوص القرآن ومجالات السلوك الإنساني، فيبين الأخلاق الممدوحة، ويحذر من الأخلاق المذمومة، ويظهر أثر الأخلاق في صلاح الفرد والمجتمع.

فالقرطبي لم يتعامل مع القرآن كمصدر للأحكام فقط، بل رآه منهجا لبناء الإنسان أخلاقيا وسلوكيا. فقد أبرز مكانة الأخلاق في النص القرآني، وحذر من الانحراف عنها، وبين أنها الغاية التي تصبو إليها الشريعة. وبذلك قدم تفسيره نموذجاً متكاملاً يجمع بين الأحكام الفقهية والتوجيه الأخلاقي.

المبحث الثاني

الأسس القرآنية والمنهجية للقدوة في تفسير القرطبي

[1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1/ 2-3.

[2]) الوصع: من صغار العصافير خاصّة. الفراهيدي، العين، 199/2.

[3]) القرطبي، الجامع لأحكام القران، 320/14.

[4]) ابن فرحون، الديباج المذهب، 309/2.

[5]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 3/1.

المطلب الأول: أهمية القدوة في التربية الأخلاقية

تعد التربية بالقدوة من أرقى وأعمق أساليب التربية في الإسلام، لما لها من تأثير مباشر وفعال في غرس القيم والمبادئ في النفوس، وخصوصاً في مجال التربية الخُلقية. وقد أولى الإسلام هذا النوع من التربية اهتماماً بالغاً، حيث قدم الأنبياء كنماذج مثالية للاقتداء في السلوك والأخلاق. فالله سبحانه وتعالى لم يرسل رسله فقط لتبليغ الرسالة، بل ليجسدوا قيمها ويترجموا تعاليمها إلى سلوك عملي ملموس يحتذى به.

فالتربية بالقدوة تعمل على نقل القيم والمعايير السلوكية من المُربي إلى المُتربي من خلال السلوك الفعلي لا من خلال الأقوال فقط. فالناس -وبخاصة الأطفال والناشئة- يتأثرون بما يرونه من أفعال أكثر مما يسمعونه من أقوال. والمُربي الناجح هو من تتسق أقواله مع أفعاله، فيكون قدوة صالحة في كل تصرفاته. وقد أشار الإمام ابن القيم إلى أن: "علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق"[1]. وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره"[2].

فمن الأخطاء الجسيمة التي تهدم التربية بالقدوة، وتقوض بنيانها من أساسه، أن تخالف أفعال الإنسان أقواله، فيأمر بما لا يفعل، وينهى عما لا يترك، فيقع في نفاق عملي ظاهر، يذهب بمصداقيته ويطفئ نور دعوته. وقد حذر الله سبحانه من هذا المسلك في قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ (2)كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ الصف [2، 3]، فدلت الآية على أن مخالفة القول للفعل من أعظم أسباب المقت الإلهي، وأن القدوة السيئة لا تؤدي إلا إلى نفور القلوب، وفساد النيات، وغياب الأثر.

قال الغزالي في إحياء علوم الدين: "أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج"[3]، فحين يرى الطفل قدوته تمارس ما تدعو إليه، ينعكس ذلك في سلوكه بصورة فطرية، ولذلك فإن التربية الخلقية بالقدوة هي حجر الأساس في بناء مجتمعٍ قيمي سليم.

التربية بالقدوة ليست مجرد وسيلة، بل هي أسلوب حياة يؤثر بعمق في بناء الشخصية المسلمة السوية. عندما يرى الطفل والده صادقا، والأم رحيمة، والمعلم عادلا، والمجتمع متخلقا بالأخلاق الحسنة، تتجذر هذه القيم فيه. أما إذا رأى تناقضا بين القول والفعل، تشوهت لديه صورة الأخلاق.

وهكذا، فإن أعظم استثمار في الأمة هو في بناء الإنسان الخلقي، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال نماذج حقيقية تترجم القيم إلى سلوك، والأنبياء ومن بعدهم أتباعهم هم أنقى وأعظم هذه النماذج.

---

[1]) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الفوائد، 61.

[2]) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث (50)، 69/1.

[3]) الغزالي، محمد بن محمد، احياء علوم الدين، 58/1.

لقد جعل الإسلام من الأنبياء قدوات خالدة في سلوكهم وأخلاقهم، لا لمجرد الإعجاب بهم، بل ليكونوا منارات نقتدي بها في واقعنا، فالتربية بالقدوة الخلقية ليست درساً نظرياً، بل فعل متكرر وموقف يومي. وكل من أراد أن يربي جيلا صالحا، فعليه أن يبدأ بنفسه، فيكون هو النموذج، تماما كما كان الأنبياء.

وكلما كان المربي متحلياً بمكارم الأخلاق، حسن السلوك، رقيق العبارة، لين الجانب من غير ضعف ولا تهاون، متجنباً للفظاظة والشدة، متسامحاً في غير تفريط، عفواً في غير إذلال، كان أدعى لأن يحتذى به، وأقرب إلى قلوب الناس، وأرسخ في نفوس من حوله. فإن التربية بالقدوة لا تستقيم إلا إذا اجتمعت فيها الخصال الفاضلة، والأخلاق الرفيعة، والمعاملة الحسنة. أما إذا فقد المربي محاسن الأخلاق، وغلب عليه الجفاء والحدة، انصرف الناس عنه، وساءت عشرته، وضعف أثره، وسقط من أعين من حوله، فلا يقبل منه وعظه، ولا يؤتمن على غرس القيم، ولا يقتدى به.

وقد أشار القرطبي في عدة مواضع من تفسيره إلى أهمية القدوة، وضرورة امتثالها في حياة المسلم، وهو يشير إلى ذلك عند حديثه عن التعامل مع الفئة الباغية التي تخرج على الحاكم العدل، فيقول: "والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مدبرا ولا ذففوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفساً ولا مالا، وهم القدوة"[1]، فقوله يشير بوضوح إلى معنى القدوة وأهميتها في منهج القرطبي، إذ يجعل سلوك الصحابة رضي الله عنهم—وخاصة في ميادين الحرب—نموذجاً عملياً يُحتذى به عند فهم النصوص الشرعية وتنزيلها. فالقرطبي حين يقرر أنهم لم يتبعوا مدبِراً، ولم يجهزوا على جريح، ولم يقتلوا أسيراً، ولم يعتدوا على نفس أو مال، ثم يختم بقوله: "هم القدوة"، فإنه يعلن أن معيار السلوك الأخلاقي ليس مجرد الاجتهاد النظري، بل الالتزام بما جسّده الجيل الأول من تطبيق نبوي أصيل.

وهو يؤكد على معنى القدوة في موضع آخر من تفسيره من خلال تأكيده أن خيار الصحابة وفضلاءهم—وعلى رأسهم عليّ وطلحة والزبير وسائر العشرة المبشَّرين بالجنة—هم النموذج الأعلى الذي ينبغي للأمة أن تحتذي به. فهؤلاء الصحابة قد نالوا تزكية ربانية في القرآن، وثناءً نبوياً صريحاً، ما يجعل سلوكهم معياراً موثوقاً لفهم الدين وتطبيقه.

ويبيّن النص أن مكانة هؤلاء الصحابة لا تستند فقط إلى بشارتهم بالجنة، بل أيضاً إلى ثباتهم وعلمهم بوقوع الفتن التي أخبرهم بها النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك حافظوا على خلق رفيع، وضبطٍ للنفس، وحرصٍ على وحدة الأمة. وهذا يجعل الاقتداء بهم أولى وأوثق، لأنهم واجهوا الابتلاءات العظيمة بسلوك يعكس صفاء التربية النبوية[2].

وعند تقريره لوجوب قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة، يشير القرطبي إلى أهمية القدوة في تقرير الحكم الشرعي، فيقول: "فهؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة"[3]، فقوله هذا يمنح عامل القدوة مكانة محورية في تقرير الأحكام الشرعية، فالقرطبي لا ينظر إلى القدوة باعتبارها مكمّلة للاستدلال فحسب، بل باعتبارها رافدًا أصيلًا من روافد تقرير الحكم، لأن عمل الصحابة هو التطبيق المباشر لهدي النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فإن اعتماد فعلهم دليلاً يرسّخ الحكم ويقوّيه. فالقرطبي يقرر أن القدوة ليست مفهوماً نظرياً، بل هي تمثُّل لأخلاق السلف الذين جمعوا بين العلم والعمل، وبين الفقه والتقوى. فهؤلاء هم المرجع الأخلاقي الذي يُهتدى به في زمن الخلاف، وهم النموذج الذي يعكس حقيقة الإسلام كما نزل وكما وُثّق في السيرة العملية للجيل الأول.

[1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 320/16.

[2]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 299/16.

[3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 119/1

المطلب الثاني: معيار القدوة الصالحة في ضوء تفسير القرطبي

يبين القرطبي أن الخلق الحسن معيار التمايز بين الأنبياء والصالحين من جهة، والمنافقين والفاسقين من جهة أخرى، فصدق الوعد خلق عظيم من أخلاق الأنبياء والمرسلين، وهو من دلائل كمال الإيمان ونقاء السريرة، وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه، فقال: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ مريم [54]، فجعل صدق الوعد من أبرز صفاته وأعظم فضائله، مما يدل على علو منزلته عند ربه.

وقد عد القرطبي صدق الوعد من سمات المرسلين وصفات المؤمنين الصادقين، لأن فيه التزاما بالحق، ووفاء بالعهد، واحتراما للآخرين، وهو من محاسن الأخلاق التي جاء الإسلام لتأكيدها. وفي المقابل، فإن الخلف في الوعد من أخلاق الفاسقين والمنافقين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[1].[2]

وخلق الأنبياء قدوة للدعاة في سبيل الله تعالى، وهو يحدد علاقتهم بالعصاة والطغاة، ويبين المنهج الصحيح للتعامل معهم، فمن أعظم ما يجب أن يتحلى به الدعاة إلى الله حسن الخلق ولين القول، فإن الدعوة لا تبلغ أثرها ما لم يزينها اللطف، وتغلفها الكلمة الطيبة. وقد دل على ذلك قول الله تعالى لنبيه موسى وأخيه هارون عليهما السلام في مخاطبة أعتى أهل الأرض: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه [44]. فإذا كان هذا هو الأدب المأمور به في مخاطبة فرعون الطاغية، فكيف بمن دونه من الناس؟! إن الداعية أولى الناس بالتحلي بالحكمة، وحسن الخطاب، والكلمة الرقيقة التي تجذب القلوب وتفتح الآذان.

وقد قرر الإمام القرطبي هذا المعنى حين قال: "فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه"[3]، تأكيدا لوجوب التخلق بأخلاق الأنبياء في الدعوة، ومن ذلك أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾البقرة [83]، فالكلمة الطيبة لا تعجز عنها الألسنة، لكنها دليل على طهارة القلوب وسمو النفس، وهي طريق موفق للوصول إلى القلوب ودعوتها إلى الخير. فالخُلق الحسن في الدعوة ليس ترفاً بل ضرورة شرعية، وهو مفتاح الهداية وسبيل التأثير.

وقد نبه القرطبي على ذلك حين نقل صفات النبي صلى الله عليه وسلم في مشيته، مبيناً كيف جمع فيها بين الرفق والحزم، وبين العزيمة والسكينة، وهي أخلاق نبوية خلق بها، ودعا إليها، وورثها خلفاؤه الراشدون، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكانت لهم سجية، لا تكلفاً. فالاتباع الحقيقي للأنبياء لا يقتصر على العبادات الظاهرة، بل يتعدى ذلك إلى الهيئة والسلوك والتعامل مع النفس والناس، فكل ذلك من مكارم الأخلاق التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم، وجعلها عنوانا لطبيعته النبوية، وقدوة لأمته، يقول القرطبي: "والقصد والتؤدة وحسن السمت من أخلاق النبوة"[4].

فهيئة المشي والتصرف، تعكس رزانة النفس ووقار القلب. وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان يمشي هونا، بتؤدة ووقار، لا كسلا ولا اختيالا، بل مزيجا من النشاط والانضباط، فكان يمشي كأنما ينحدر من صبب، في توازن عجيب بين العزم والسكينة. وهذه الهيئة النبوية في المشي والمظهر أمر بها الشرع ودعت إليها السنة، وجعلت من دلائل الإيمان وحسن الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾الفرقان [63].[5]

---

[1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن الكذب، حديث (5744)، 2262/5.

[2]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 115/11.

[3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 200/11.

[4]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 68/13.

[5]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 67/13-68.

فمفهوم القدوة في الدين مفهوم حاضر بقوة في تفسير القرطبي، فالاقتداء هو أحد أهم الطرق لترسيخ الأخلاق، فيتجلى مفهوم القدوة في تفسير الإمام القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفرقان [74]، حيث يظهر أن الإمامة الحقيقية ليست في الرئاسة الظاهرة أو الوجاهة الاجتماعية، بل في أن يكون الإنسان قدوة يقتدى بها في الخير والتقوى. فالقرطبي يبين أن دعاء عباد الرحمن بأن يكونوا "إماما للمتقين" معناه: أن يكونوا ممن يحتذى بهم في أعمال البر ومكارم الأخلاق، لا طلبا للسلطة أو الشهرة، بل سعيا للقيادة بالاستقامة والطاعة.

ويؤكد ذلك ما نقله عن السلف، كقول ابن عباس: "اجعلنا أئمة هدى"[1]، وقول مكحول: "اجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون"[2]، أي أن الإمامة المطلوبة هنا هي الريادة في العمل الصالح والسلوك القويم، التي تجعل صاحبها مثالاً يقتدي به الآخرون في طريق الهداية.

كما نبّه القرطبي إلى أن الإمامة لا تنال بالدعاوى، بل بالدعاء والتوفيق والعمل، مستشهداً بقول القشيري: "الإمامة بالدعاء لا بالدعوى"[3]، فليس كل من تمنى أن يكون إماماً صار كذلك، بل لابد من التزكية بالعمل، والتحلي بالأخلاق التي ذكرها الله في صفات عباد الرحمن، والتي تبلغ إحدى عشرة صفة، كالتواضع، الحلم، العفو، التهجد، والابتعاد عن المعاصي.

وهكذا، يوضح القرطبي أن القدوة هي جوهر الإمامة في الدين، وأن من تمام الإخلاص أن يطلب المرء أن يكون قدوة في التقوى لا في الرياسة، وهذا المعنى يعم كل داعية ومرب، حيث يجب أن يكون سلوكه قبل قوله، وعمله قبل دعوته، ليكون أهلا لأن يتبع.[4]

المطلب الثالث: النماذج النبوية للقدوة في تفسير القرطبي

يشير القرطبي إلى الاقتداء بالأنبياء عنده ذكره للأخلاق الإسلامية، فيعمد إلى الإشارة إلى خلق الأنبياء، والاقتداء بهم، ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ البقرة [45]: "الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين"[5].

والقرآن الكريم يقدم القدوة كمنهج تربوي ثابت، ويبرز مكانة الأنبياء كنماذج يحتذى بها. فقد قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب [21]، والمقصود بالأسوة هنا النموذج الكامل في السلوك والتصرف، وقد ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره: "هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله"[6].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجسد التربية الخلقية في أسمى معانيها، وقد أثنى عليه ربه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم [4]، وكان خلقه القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها.[7]

---

[1]) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، حديث (1572)، 10/ 550. قال محقق الكتاب: "حسن"

[2]) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، حديث (1576)، 10/ 551. قال المحقق: "اسناده حسن".

[3]) القشيري، لطائف الإشارات، 652/2.

[4]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 83/13.

[5]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 371/1.

[6]) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، 350/6.

[7]) ابن حنبل، المسند، حديث (24601)، 41/ 148.

ومن هذا التجسد الأخلاقي في حياته صلى الله عليه وسلم أن كان رحيماً حتى بأعدائه، وعفا عن أهل مكة رغم ما فعلوه به، وكان يلقب بـ"الصادق الأمين" قبل البعثة وبعدها، ومن تواضعه أنه كان يجلس على الأرض، ويأكل مع الفقراء، إلى غير ذلك من المعاني الأخلاقية المتجسدة في حياته.

وعلى هذا النهج سارت قصص الأنبياء لتبرز المعاني الأخلاقية متجسدة في حياة الأنبياء، فمثال القدوة في العفة والصبر أمام الفتنة ما جاء في قصة يوسف عليه السلام، وعفوه عن اخوته، وتجاوزه عنهم عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾يوسف [92]، وقد علق الإمام السعدي على الآية فقال: "وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين"[1]، وقد ذكر قبلها عند قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ يوسف [91]، شهادة إخوة يوسف على كرم أخلاقه، يقول: "أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم"[2].

وفي قصة إبراهيم عليه السلام مثال على القدوة في الإيمان والتضحية، قال الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾النحل [120]، وكان مثالا للتضحية حين استجاب لأمر الله بذبح ابنه، فقال لابنه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الصافات [102].

وهو ينطلق من قاعدة عظيمة في اتخاذ الأنبياء قدوات وبخاصة في الجانب الأخلاقي، وذلك ناشئ من اشتراك الأنبياء في الدعوة إلى مكارم الاخلاق، وإن اختلفت شرائعهم، فهو يستنبط من سيرة الأنبياء وقصصهم ما يجب على المسلم التخلق به، انطلاقاً من وحدة الدعوة الأخلاقية عند الأنبياء، وهو ما بينه القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الشورى [13]، فمنهج الإمام القرطبي ترسيخ الاقتداء بالأنبياء من خلال البعد الأخلاقي المشترك بينهم، حيث يرى أن الرسالات السماوية كلها – وإن اختلفت في تفاصيل الأحكام والشرائع – إلا أنها تتفق في جوهرها الأخلاقي وتوجيهها القيمي. فالدين الذي أوصى الله به نوحا، هو نفسه الذي أوحاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم، يقوم على ثوابت لا تتبدل، مثل التوحيد، والصدق، وصلة الرحم، وتحريم الظلم، وإشاعة العدل، وهي القيم التي تتشكل منها الهوية الأخلاقية للمؤمن[3].

وينبه القرطبي على أن هذا الاتفاق الأخلاقي بين الأنبياء هو قاعدة عظيمة يبنى عليها الاقتداء، فيتعلم المسلم من سيرة كل نبي خلقا يقتدي به، ويجد في قصصهم ما يرشده إلى السلوك السوي، والنية الخالصة، والعلاقة الرحيمة بالخلق والخالق. ولذلك، فإن قصص الأنبياء في القرآن ليست سرداً تاريخيا، بل هي مادة تربوية أخلاقية، تهدف إلى غرس الفضائل في النفوس، وترسيخ القيم في القلوب.

فالقرطبي، من خلال تفسيره لهذه الآية، يؤسس لفهم عميق لمفهوم القدوة، ويجعل الخُلق النبوي المشترك هو المعيار الأسمى للسير على طريق الأنبياء، فيرى أن الدعوة إلى مكارم الأخلاق هي أصل مشترك، وأن من تمام اتباع النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون المسلم متمثلاً لهذه الأخلاق في حياته.

---

[1]) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 404.

[2]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 404.

[3]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/16.

ومن أمثلة اتخاذ الأنبياء قدوة إشارة القرطبي إلى مواقف عملية من صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومثال ذلك صبره على ما حصل في غزوة أحد، والتي تكشف عن عظم صبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وثباته في أشد المواقف وأقساها. فقد اجتمعت عليه صلى الله عليه وسلم أنواع من الأذى الجسدي والنفسي: فقد جرح وجهه الشريف، وكسرت رباعيته، وهشمت خوذته على رأسه، وسقط في حفرة خططت لتكون كمينا له، واستشهد عمه حمزة رضي الله عنه، وأصابه الحزن لفقده، ومع ذلك لم يتزعزع إيمانه، ولم يتغير يقينه، بل صبر واحتسب، وتحمل الألم في سبيل الدعوة إلى الله ونصرة دينه، وإلى صبره أشار القرطبي بقوله: "جزاه عن أمته ودينه بأفضل ما جزى به نبيا من أنبيائه على صبره"[1].

ومن التربية بالقدوة ما ورد في سورة البقرة عند قول موسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ البقرة [67]، حيث عقب القرطبي على الآية بقوله: "لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل، فاستعاذ منه عليه السلام، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء"[2]، وفي هذا القول دلالة عظيمة على أدب الأنبياء في الخطاب، وتعظيمهم لأوامر الله، وتنزيه أنفسهم عن العبث في الدين. كما يظهر فيه أن الاستهزاء في مقام الجد، خاصة فيما يتعلق بأوامر الله، هو من أفعال الجاهلين الذين لا يقدرون قدر الوحي ولا يلتزمون حدود الأدب مع الله. وقد اتخذ موسى عليه السلام الاستعاذة بالله سبيلاً لبيان فظاعة الفعل وتنزهه عنه، مما يدل على فقهه وعلو مقامه، ويعلمنا أن نستنكر الباطل بأدب، ونستنصر بالله في كل أمر نخشى أن نقع فيه.

فالأنبياء عليهم السلام هم قمم الهداية، وقدوة البشرية في مكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالله عز وجل بعثهم ليكونوا أسوة حسنة في القول والعمل، كما قال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب [21]، وقد جمعوا بين حسن الخلق والرحمة والعدل، وبين الحزم في الدعوة إلى الخير والغيرة على حدود الله، فكانوا يرشدون الناس بأفعالهم قبل أقوالهم، ويربون باللين والموعظة الحسنة، كما كانوا أشد الناس نصحاً لأقوامهم وأصبرهم على الأذى في سبيل تبليغ الحق.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه: "إنما بعثتُ لأتَمم صالحَ الأخلاق"[3]، فكان أصدق الناس حديثا، وأوفاهم عهدا، وأرحمهم بالخلق، حتى مع من آذوه. وكانوا جميعا يجسدون معاني الصبر والحِلم والكرم والحياء، ويقفون بشجاعة في وجه الباطل، لا تأخذهم في الله لومة لائم، فكانوا بحق منارات تهتدى، وسيرا خالدة يقتدى بها في كل زمان ومكان.

وقد أشار القرطبي إلى هذه الوظيفة الأخلاقية للأنبياء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف [157]، فقد أورد قولا لعطاء مفسراً الآية: "يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. وينهاهم عن المنكر عبادة الأصنام، وقطع الأرحام"[4].

---

[1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 186/4.

[2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 446/1.

[3]) ابن حنبل، المسند، حديث (8952)، 513/14. قال عنه محقق المسند الأرناؤوط: "صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث".

[4]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 299/7.

ففي الآيات القرآنية التي تحث على مكارم الاخلاق -وإن كان الخطاب موجها فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم- تربية لعموم الأمة، وأمر للاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، وهو ما أشار اليه القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف [199]، يقول: "وهذا وإن كان خطابا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه"[1].

فهذه الآية الكريمة، رغم قصر ألفاظها، قد جمعت -كما ذكر القرطبي- أصول الأخلاق والتكاليف الشرعية في كلمات ثلاث[2]:

- فقوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ الأعراف [199]، يشمل الحث على صلة من قطع، والعفو عمن أساء، والتلطف بالمؤمنين، وسعة الخلق مع الناس، وسائر الصفات التي يتحلى بها أهل الطاعة والفضل.

- وأما قوله: وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ الأعراف [199]، فيتضمن الحث على الأمر بكل ما هو معروف شرعاً وعقلاً، مثل برّ الأقارب، وتقوى الله في الأمور كلها، والبعد عن المحرمات، وغض البصر، والعمل لما بعد الموت.

- وفي قوله: وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ الأعراف [199]، إشارة إلى ضرورة الترفع عن السفهاء، وترك جدال الجهال، والابتعاد عن أهل الظلم والفساد، والتخلق بالحلم والسكينة، وعدم الانحدار إلى مستوى الجدل العقيم، مما يعكس اكتمال هذه الآية في رسم منهاج راق من الأخلاق، يجمع بين العفو، والدعوة إلى الخير، والتسامح مع الجهل.

وقد اعتبر الإمام القرطبي رحمه الله أن التخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أحد أوجه النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ورد في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدين النصيحة ثلاثا. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[3]، يقول: "والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته ومحبة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة"[4]، فكان التخلق بأخلاقه كالحلم، والصدق، والرحمة، والحياء، والصبر، والعدل، من أعظم صور النصح له، ودليلاً على المحبة الصادقة والاتباع الكامل، وبه يكتمل الاقتداء وتتحقق الهداية.

المطلب الرابع: التجليات العملية للقدوة: القول والعمل

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم مجرد مبلغ للأخلاق، بل كان مجسداً لها، يعيشها في حياته اليومية، ويحث الناس عليها بفعله قبل قوله، فصار أعظم قدوة وأصدق داعية إلى مكارم الأخلاق، وقد استدل الإمام القرطبي بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل [90]، على شمول دعوة الإسلام لمكارم الأخلاق، وأنها لب الرسالة ومقصدها الأسمى، حيث رُوي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال عليٌّ متعجباً: "يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق"[5] . وجاء في خبر آخر أن أبا طالب حين سمع أن ابن أخيه محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أن الله أنزل عليه هذه الآية، قال: "اتبعوا ابن أخي، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق".[6]

---

[1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 347/7.

[2]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 344/7.

[3]) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث (55)، 74/1.

[4]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 227/8.

[5]) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، 483/2.

[6]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 165/10.

ومن هذا الاقتداء العملي ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ الكهف [60]، حيث يظهر النص القرآني كيف كان نبي الله موسى عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، يخاطب خادمه بلفظ "فتى"، وهو تعبير يحمل في طياته التوقير والاحترام والتلطف، لا التكبر والتعالي.

وقد بين القرطبي أن هذا التعبير يدل على أدب موسى عليه السلام وتواضعه، حيث لم يستخدم معه ألفاظاً تدل على التسلط أو الاستعلاء، بل خاطبه بلطف، وعبر عنه بلفظ كريم شاع استخدامه في العرب للدلالة على الخدمة مع حسن المعاملة. وهذا يتفق مع توجيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال: "لا يقل أحدكم عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي"[1]. وفي هذا تعليم عملي للأمة أن الرفق ولين الجانب، واحترام من هو دونك في المنزلة أو الخدمة، هو خلق الأنبياء، ومنهم تتعلم الأمة مكارم الأخلاق[2].

وهذه القدوة الأخلاقية النبوية تظهر من خلال القصص القرآني أيضا، فتظهر الآية الكريمة: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ الكهف [66]، أدبا نبويا رفيعا في طلب العلم، يتمثل في تواضع نبي الله موسى عليه السلام، وحسن مخاطبته لمن يريد أن يتعلم منه. فقد جاء سؤاله بصيغة لطيفة مهذبة: "هل أتبعك"، ولم يقل مثلا "علمني" أو "سأتعلم منك"، بل جعل الأمر طلبا مهذبا مكسوا بالملاطفة والاحترام. وقد أشار الإمام القرطبي رحمه الله إلى هذا المعنى بقوله: "هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل، المبالغ في حسن الأدب"[3].

فهذا التواضع والأدب، رغم أن موسى عليه السلام من أعظم أنبياء الله وأفضلهم، يدل على أن الأنبياء هم قدوة في الأخلاق والاحترام والتواضع في كل مقام، حتى في طلب العلم، وفي هذا تعليم لنا نحن المسلمين أن طلب العلم لا يكون بتكبر أو استعلاء، بل بذل التقدير والتواضع لأهله، والإقرار بفضلهم.

ثم قوبل الأدب النبوي بأدب من الخضر عليه السلام، ففي قوله تعالى: قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا الكهف [70]، يظهر أسلوب توجيهي مهذب، يجمع بين التأديب والإرشاد، من غير تعنيف ولا غلظة. فقد وضع الخضر شرطاً لمرافقة موسى عليه السلام، وهو ألا يبادر بالسؤال عن شيء من أفعاله حتى يفسرها له هو بنفسه، وذلك حرصا على دوام الصحبة وتمام الفائدة. وقد بين الإمام القرطبي رحمه الله هذا المعنى بقوله: "وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب" [4].

فهذا الموقف يظهر حكمة الخضر في تهذيب مرافقه، وتوجيهه برفق إلى آداب الصحبة وطلب العلم، إذ إن من آداب المتعلم مع العالم أن يصبر على ما يرى من أفعال أستاذه، حتى يبين له الحكمة منها.

المطلب الخامس: آليات استنباط القرطبي لمواضع الاقتداء من النص القرآني

يستنبط القرطبي من الآيات القرآنية ما فيه دلالة على الخلق النبوي، فقد استنبط الإمام القرطبي رحمه الله من قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الأنعام [50]، تجلي خلق التواضع في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وتمام خضوعه وذله لربه عز وجل. فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أنه لا يملك من خزائن الله شيئاً، ولا يدعي لنفسه علم الغيب، مع أنه خير خلق الله وأكرمهم عليه، مما يوضح عظمة أدبه مع الله وتبريه من مقام الربوبية، وإقراره بأنه عبد مكلف مأمور. ورأى القرطبي أن هذا الإعلان النبوي هو درس عظيم في التواضع وترك الدعوى والادعاء، إذ يظهر النبي صلى الله عليه وسلم عبوديته الخالصة، ويؤكد أن مهمته البلاغ

[1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العتق، حديث (2414)، 901/2.

[2]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/11.

[3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 17/11.

[4]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 18/11.

والتبليغ، لا التصرف في ملكوت الله عز وجل، ولا ادعاء ما هو من خصائص الإلهية. وهذا الخلق الجليل يعد من أعظم صفات الأنبياء، ودليل صدقهم، وأساس الاقتداء بهم في مقام العبودية الخالصة[1].

وقد دعا الإمام القرطبي رحمه الله إلى مكارم الأخلاق وحث عليها من خلال تفسيره لآيات القرآن، مستدلا بسير الأنبياء الكرام وأخلاقهم الرفيعة، فكانوا القدوة والمثال الأعلى. ففي تفسيره لقوله تعالى عن ضيافة إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ هود [69]، أشار إلى أن من أدب الضيافة أن يعجل المضيف بقرى ضيفه، ويقدم له ما تيسر دون تكلف أو مشقة. واستخلص من هذا الموقف النبوي أن الضيافة من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وأنها من آداب الصالحين وسنن المرسلين، حيث كانت خلقاً ملازماً لهم، وعلى رأسهم إبراهيم عليه السلام، الذي عرف بأنه أول من أضاف الضيف وأكرمه. فكان موقفه هذا دليلاً عملياً على الكرم، والمروءة، وحسن الاستقبال، وهي صفات حض القرطبي على اتباعها تأسيا بالأنبياء، وتأكيداً لمكانة هذه القيم في بناء المجتمع المؤمن المتراحم، يقول القرطبي: "والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين"[2].

ومن الإشارة إلى الاقتداء بخلق الأنبياء، يبرز الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يوسف [50]، أدب الأنبياء الرفيع في الخطاب، ويتجلى ذلك في تعامل نبي الله يوسف عليه السلام مع من ظلمه من النسوة، وعلى رأسهن امرأة العزيز. فقد اختار عليه السلام الإشارة دون التصريح، والتلويح دون المواجهة، فذكر النساء بصيغة الجمع، ولم يذكر امرأة العزيز بالاسم رغم أنها صاحبة الشأن في القضية، مراعاة للأدب، وحسن العشرة، وصونا للكرامة.

ويعلق القرطبي بأن هذا من تمام الأدب وجميل الخلق، إذ إن من شأن أهل المروءة وأصحاب النفوس الكبيرة أن لا يعيروا المخطئ أو يفضحوه، خاصة إذا أظهر التوبة أو رجع عن الخطأ. فهذا الموقف من يوسف عليه السلام يعكس كمال أخلاق الأنبياء، وسعة صدرهم، وحرصهم على ستر الزلات، بل وتقديم العدل بأسلوب نبيل لا يجرح المشاعر.[3]

وفي موضع آخر من قصة يوسف عليه السلام يشير القرطبي إلى كرم الأخلاق عند الأنبياء، وتجاوزهم عن المخطئ والمذنب، وذلك في قوله تعالى: مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يوسف [100]، يقول القرطبي: "ولم يقل من الجب استعمالا للكرم، لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه بقوله: "لا تثريب عليكم". قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذكر الجفاء في وقت الصفا جفا"[4]. وهكذا يعلمنا القرطبي من خلال هذا المواضع أن الاقتداء بالأنبياء لا يكون فقط في عباداتهم، بل أيضا في أخلاقهم وأسلوبهم الرحيم في التعامل حتى مع من أساء إليهم.

وهو يشير إلى مفهوم الاقتداء في كثير من المواضع في تفسيره، حاضاً على الأخلاق الإسلامية تأسياً بما يذكره من خلق الأنبياء، فعند ذكره لقول يعقوب عليه السلام: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يوسف [18]، يقول القرطبي: "الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين"[5].

---

[1]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 27/9.

[2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 64/9.

[3]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 207/9.

[4]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 267/9.

[5]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 247/9.

1عبيدة أبو غزالة، جامعة النجاح الوطنية/فلسطين

2 الدكتور: عودة عبد الله، جامعة النجاح الوطنية/فلسطين

المبحث الثالث

آثار القدوة في السلوك الفردي والاجتماعي في تفسير القرطبي

المطلب الأول: الاقتداء في التأدب مع الله عز جل

يشير القرطبي في سورة الكهف إلى خلق جميل ليتأسى به المؤمنون، حينما أوضح الفرق بين نسب الأفعال إلى الله تعالى أو إلى العبد، مبينا أن الأنبياء والصالحين يتأدبون مع الله في خطابهم، ويقتدون في ذلك بعضهم ببعض. ففي قوله تعالى على لسان الخضر: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الكهف [79]، ثم في قوله في الموضع الآخر: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ الكهف [82]، يبين القرطبي أن الخضر أضاف العيب إلى نفسه رعاية للأدب مع الله تعالى، لأنه لفظ يحمل النقص، بينما أضاف الفعل المتعلق بالبناء والإصلاح إلى الله عز وجل، لأنه يحمل معنى الخير والصلاح.

ثم يورد القرطبي تأكيدا لهذا المعنى قول إبراهيم عليه السلام، الذي قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء [80]، فأسند المرض إلى نفسه، مع أن الله هو الذي يقدر المرض، وذلك أدباً وحياءً مع الله، كما أسند الشفاء إلى الله لأنه فعل خير ورحمة[1].

وهذا كله يدل على أن التأدب مع الله في الأقوال والأفعال خلق نبوي عظيم، يتوارثه أهل الإيمان والصلاح، ويقتدى به، فلا ينسب إلى الله إلا ما كان من جنس الكمال، ولا يسند إليه ما يفهم منه نقص أو عيب، وإن كان واقعا بقدره ومشيئته، وفي هذا دعوة إلى الاقتداء بأدب الأنبياء في الكلام عن الله، وفي توقير جنابه، وتعظيم صفاته وأفعاله، وحسن الظن به، وهو خلق من أعظم ما يورث الإيمان والخشية والتواضع، كما أنه يدل على دقة الفهم القرآني، وسلامة العقيدة، ورسوخ الأدب مع الله تعالى.

والقرطبي يؤكد على هذا المعنى في موضع آخر من تفسيره عند قوله تعالى: : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ص [41]، وأن من خلق المسلم التأدب في الخطاب مع رب العالمين اقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، فنسبة الشر لا تذكر صراحة إلى الله تعالى، وإن كان هو خالق كل شيء، وذلك تأدبا مع جلال الله وتنزيها له، اقتداء بما جاء على ألسنة الأنبياء. فإبراهيم عليه السلام قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء [80]، فنسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله، وموسى عليه السلام قال ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ الكهف [63]، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم قال: "والخير في يديك، والشر ليس إليك"[2]، كل ذلك أدباً واعترافاً بكمال الله وتنزيهه عن النقص، وهو ما يجب أن يتخلق به المسلم في دعائه وخطابه، متأسياً بهدي الأنبياء.[3]

---

[1]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/39-40.

[2]) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل، حديث (771)، 1/534.

[3]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 15/210.

المطلب الثاني: أثر القدوة في تشكيل شخصية المسلم

مفهوم الاقتداء يستشعره المسلم عند دعائه وافتتاحه لأي عمل، وهو أدب عظيم وخلق رفيع أرشد إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ النمل [59]، حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستفتح الآيات بحمد الله تعالى والسلام على أنبيائه ومصطفيه من عباده، وهو أدب نبوي راق يدل على التيمن والتبرك والتأسي بمن سبق من أهل الفضل. فاستفتاح الكلام بالثناء على الله والصلاة على رسله، هو اقتداء بسنة الأنبياء، وسلوك في طريقهم، واتباع لهديهم، حتى في أدق الأمور كمخاطبة الناس وتبليغ الرسالة. وهذا الأدب انتقل عمليا إلى العلماء والوعاظ والخطباء، فصاروا يستهلون علومهم وخطبهم ومراسلاتهم بحمد الله والصلاة على رسوله، تأسياً واقتداء بمن سبق من الأنبياء وأهل العلم والدعوة.[1]

وهكذا، يشعر المسلم كلما دعا أو ابتدأ عملا ذا شأن، أن له سلفاً صالحاً من الأنبياء والمصلحين كانوا يبدؤون بالتحميد والسلام، فيوقن أن البداءة بالذكر توفيق، وهي تهيئة روحية وعقلية لقبول الخير، ووسيلة لاستحضار النية والاتصال بمنهج النبوة. فليست هذه الاستهلالات مجرد عبارات، بل هي علامة على الارتباط بالسلسلة الطاهرة من المصطفين، واستحضار لروح القدوة في كل أمر.

والقرطبي يشير إلى هذا الارتباط بالسلسلة من المصطفين، والاقتداء بالصالحين والأولياء من خلال القصة القرآنية، فهو يستنبط الخلق من القصة القرآنية داعياً إلى الاقتداء بما ورد في القصة القرآنية، موظفاً النص القرآني توظيفاً أخلاقياً، فيقتدي المسلم بما يقرأه من قصص الصالحين، غير مقتصر على الأنبياء وسيرتهم صلاة الله وسلامه عليهم، ومثال ذلك ما أورده في قصة مؤمن يس عند قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يس [20]، يقول القرطبي: "وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام"[2].

والقرطبي يتميز بقدرته على استنباط الأخلاق النبوية والإشارة إليها عند تفسيره للآيات القرآنية، مبرزاً جانب الاقتداء بالخلق النبوي، ففي قوله تعالى: "مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ" النجم [17]، تتجلى ملامح الخلق النبوي العظيم في أبهى صوره، فهذه الآية تدل على أدب النبي صلى الله عليه وسلم وكمال انضباطه في ذلك الموقف الجليل، إذ ثبت بصره على ما أذن له في رؤيته، فلم يتلفت، ولم يجاوز، ولم يتعد حدود ما أمر به. فتأدبه صلى الله عليه وسلم مع ربه في هذا المقام من أعظم الدلائل على سمو أخلاقه وطهارة سريرته، وهو قدوة العارفين في التوقير والتعظيم والخضوع لجلال الله، يقول القرطبي: "وهذا وصف أدب للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام، إذ لم يلتفت يمينا ولا شمالا"[3].

المطلب الثالث: أثر القدوة في سلوك المسلم تجاه المخالفين

ينقل القرطبي في تفسيره ما يشير إلى شهادة المخالف بكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة، فينقل قول محمد بن كعب القرظي في سبب نزول آية النجم: "نزلت في أبي جهل بن هشام، قال: والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قول الله تعالى:

---

[1]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 220/13.

[2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 20/15.

[3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،98./17

﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾]النجم: 34]"[1]. فمن خلال هذا القول، يتضح أن أبا جهل – مع شدة كفره وعداوته للنبي ﷺ – أقر بلسانه بأن دعوة النبي لا تحمل إلا الخير والفضائل ومكارم الأخلاق. وهذا في حد ذاته شهادة صريحة من أحد ألد خصومه على سمو أخلاقه وعلو مبادئه.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدعو إلى مصالح دنيوية أو أطماع شخصية، بل كانت دعوته إلى الصدق، والعدل، والرحمة، والعفاف، والتسامح، وسائر الأخلاق الكريمة. وهذا ما جعل أعداءه يقرون بقدوته وسمو دعوته، رغم عدم إيمانهم بها، فالقدوة الخلقية للنبي ﷺ لم تكن محصورة في أتباعه، بل تجلت حتى في نظر من عاداه، مما يدل على صفاء سيرته، وصدق نبوته، وعظمة خلقه.

وفي موقف آخر، وبعد فتح مكة، عندما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء، قالت هند بنت عتبة –وكانت حديثة العهد بالإسلام، وممن ناصبوه العداء سابقاً – قولا يشهد بوضوح لتأثير النبي صلى الله عليه وسلم الخُلقي: "والله إن البهتان لأمر قبيح، ما تأمر إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق"[2]،[3].

وهذه الشهادة لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم إنما سببها اجتماع مكارم الاخلاق فيه، فاجتماع مكارم الأخلاق في شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم كان السبب الأبرز في اتخاذه قدوة للعالمين، وقد أبرز الإمام القرطبي هذا المعنى في تفسيره لقوله تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ" القلم [4]، فبين أن عظمة خلق النبي صلى الله عليه وسلم ليست مقتصرة على خلق معين، بل نابعة من الاكتمال الأخلاقي الذي تحقق في سيرته، فكل خلق محمود كان له فيه النصيب الأوفر، حتى أصبح جامعاً لمكارم الأخلاق كلها [4].

ونقل القرطبي في تفسيره عن الجنيد قوله: "سمي خلقه عظيما لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى"[5]، مما يدل على صفاء النية وكمال الإخلاص، وهما أساس كل خلق رفيع. وعلل بعضهم عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم بأنه امتثل لأمر الله في قوله: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" الأعراف [199]، فصار تجسيدا عملياً لأمر الله، وتربى على عين الله وتأديبه، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"[6].

ولهذا، فإن اجتماع مكارم الأخلاق في النبي ﷺ جعله أسوة حسنة، ليس فقط في تعامله مع أصحابه وأهل بيته – كما أشارت عائشة رضي الله عنها حين قالت: "ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك"[7]، بل أيضا في كل أوجه الحياة: في السياسة، والرحمة، والعدل، والوفاء، والحلم، والكرم، والتواضع، وغيرها. لذا، فإن الاقتداء بالنبي ﷺ هو في الحقيقة اقتداء بمكارم الأخلاق في أرقى صورها، لأن الله جمعها فيه، وجعلها طريقه ومنهجه في الدعوة والمعاملة، وهو ما شهد له به الأعداء والأحباء على حد سواء، فقال: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" الأحزاب [21].

---

[1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 112/17.

[2]) انظر: مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، 307/4. ولم اجده مسنداً في كتب الحديث.

[3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 72/18.

[4]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 227/18.

[5]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 227/18.

[6]) ابن السمعاني، أدب الاملاء والاستملاء، 1. وحكم عليه الألباني في صحيح الجامع بالضعف (الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، 249/3).

[7]) الواحدي، أسباب النزول، حديث (836)، 463. قال المحقق: " في إسناده: حسين بن علوان: قال ابن حبان في المجروحين: وضاع".

ومفهوم الاقتداء في الأخلاق والأمر به ملاحظ في حياة الأنبياء، وقد امتثله النبي صلى الله عليه وسلم باقتدائه بمن سبقه من الأنبياء، واقتداء النبي صلى الله عليه وسلم بمن سبقه من الأنبياء يتجلى في التوجيه الإلهي له بالصبر والتأسي بمن قبله، وهو ما نلمسه بوضوح في قوله تعالى: "فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ" القلم [48]، ففي هذه الآية، يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقضي به سبحانه، سواء أكان من تبليغ الرسالة أو ما يلاقيه من أذى، كما صبر الأنبياء من قبله، ويخص بالذكر النبي يونس عليه السلام، الذي عوتب بسبب استعجاله وخروجه قبل الإذن.

فالآية تحمل توجيها نبويا فيه تربية نبوية على منهج الأنبياء قبله، إذ يطلب منه ألا يقع فيما وقع فيه أحد الأنبياء السابقين، لا تحقيرا ليونس عليه السلام – حاشا وكلا – بل تنبيها على أهمية الاقتداء بالصبر وثبات النفس، وأن العجلة والغضب لا يليقان بمقام النبوة في سياق التبليغ والدعوة.

وقد أشار الإمام القرطبي في تفسيره إلى أن هذا الأمر فيه تعزية للنبي ﷺ وتثبيت له، حيث ينقل قول قتادة: "يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت"[1]، وهذا يؤكد على أن النبي ﷺ مأمور بالاقتداء بالصابرين من المرسلين، كما أنه متبع لما أمر به من قبلهم، وليس خارجا عن سيرتهم، ولذلك قال تعالى أيضا في موضع آخر: "أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَاهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ" الأنعام [90].

فالاقتداء بالنبيين – كما هو مطلوب من الأمة – كان أول ما طلب من خاتمهم محمد ﷺ، فكان مجمعا لأخلاقهم، مقتديا بهديهم، مكملا لسيرتهم، والصبر من أعظم ما يجمع بينهم.

الخاتمة

خلص البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات:

أولا: النتائج

1. خلصت الدراسة إلى أن القدوة تمثّل محورًا مركزيًا في المنهج التربوي الذي اعتمده الإمام القرطبي في تفسيره.
2. لم يكتفِ القرطبي بعرض القيم الأخلاقية عرضًا نظريًا، بل حرص على تجسيدها من خلال نماذج عملية من الأنبياء والصحابة والسلف الصالح.
3. بينت الدراسة أن للقدوة أثرا على حياة المسلم ببيان التطبيق العملي لتعاليم الشريعة.
4. تميز القرطبي بقدرته على استنباط المعاني التربوية المرتبطة بالقدوة من الآيات القرآنية.
5. بين القرطبي ضرورة التلازم بين القول والفعل في حياة القدوة لتحقيق الأثر المرجو من الاقتداء.

ثانيا: التوصيات:

1. إجراء بحوث مقارنة بين منهج القرطبي ومناهج المفسرين في توظيف القدوة في التربية الأخلاقية.
2. الإفادة من منهج القرطبي في تقديم رؤية تربوية أخلاقية تسهم في بناء الشخصية المسلمة.
3. اعداد دراسات تبرز عناية المفسرين ببيان التربية الأخلاقية وأساليبها في القرآن الكريم.

المصادر والمراجع:

- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ت. أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط. الثانية، 1384 هـ - 1964 م، ج20.

[1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 253/18.

- ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب، ت. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، ج2.
- محمد بن عبد الله الدمشقي، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ت. محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى، 1993م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات المفسرين العشرين، ت. علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الأولى، 1396هـ.
- الذهبي، محمد بن احمد، تاريخ الإسلام، ت. عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الثانية، 1413 هـ - 1993 م، ج52،
- عمر كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ج15.
- ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ت. احمد حطيط، فرانز شتاينر، 1983م.
- محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، مؤسسة هنداوي،2017م.
- مفتاح السنوسي، القرطبي حياته واثاره العلمية ومنهجه في التفسير، جامعة قاريونس، ط. الأولى، 1998م.
- الذهبي، محمد بن احمد، سير أعلام النبلاء، ت. شعيب الارناؤوط ومجموعة من العلماء، مؤسسة الرسالة، ط. الثالثة، 1405 هـ - 1985 م، ج25.
- محمد الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج3.
- الصفدي، الوافي بالوفيات، ت. أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ- 2000م، ج29.
- الفراهيدي، العين، ت. مهدي المخزومي، دار الهلال، ج8.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الثانية، 1393 هـ - 1973 م.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ت. محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة, 1374 هـ - 1955 م، ج5.
- الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج4.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط. الخامسة، 1414 هـ - 1993 م، ج7.
- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ت. عمر حمزة، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط. الأولى، 1439 هـ
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن، لطائف الإشارات، إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط. الثالثة.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ت. محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط. الأولى، 1419 هـ - 1998 م، ج9.
- احمد بن حنبل، المسند، ت. أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط. الأولى، 1416 هـ - 1995 م، ج20.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط. الأولى 1420هـ-2000 م.
- مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، ت. عبد الله شحاتة، دار إحياء التراث، بيروت، ط. الأولى، 1423هـ.
- ابن السمعاني، عبد الكريم بن محمد، أدب الاملاء والاستملاء، ت. ماكس فايسفايلر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، 1401 – 1981.
- الواحدي، علي بن أحمد، أسباب النزول، ت. كمال زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، 1411 هـ